الســـيد جحا

الحالم اليقظان

للاستاذ كامل كيلاني

(تتمة ما نشر فى العدد الماضى)

١٠ — فى عيادة الطبيب

ومن بدائع ماروى عنه فى هذا الباب ، أعنى باب الغفلة والنسيان ماحدث الرواة عنه حين رأى المرض يبرح بزوجته فتسأله فى إلحاح أن يستدعى لها الطبيب . فلا يكاد يخرج من البيت حتى تسرع زوجه إلى منافذه فتطل عليه ، مبشرة بشفائها مما ألم بها من ألم .

ويستولى على صاحبنا الذهول بعد قليل فينسى أن زوجه لم تعد بحاجة إلى استدعاء الطبيب ، وتسوقه قدماه ـ وهو هائم فى سيره ـ على عادة الكثيرين من المفكرين ذوى اليقظة الحالمة فإذا به فى عيادة الطبيب :

« ماذا جاء بك ؟ »

فلا يكاد يهم باستدعائه حتى يذكر مانسى . فيتباله ـ على عادته ـ ولا يجد فى غير التغابى مخرجا له من مأزقه ، فيقول :

« لقد مرضت زوجى ، واشتد بها الألم فأمرتنى باستدعائك ، وما كدت أخرج من البيت حتى أطلت زوجى من النافذة وبشرتنى بشفائها ، ثم ختمت حديثها طالبة ألا أستدعيك . وقد جئت إليك لأخبرك بذلك حتى لا تكبد نفسك عناء الحضور .

١١ — غفلة أديب

وقريب من هذا ماحدث لأديب يعرفه القارىء . فقد استأذنه كاتبه ذات مساء فى إجازة ، ليستدعى الطبيب لأمه المريضة .

وعرف الأديب أن الكاتب الخبيث يخلق سببا موهوما ليمكنه من الذهاب إلى دار السيمى فى تلك الليلة ، وأنه ينتحل مرض أمه جاريا فى ذلك على مألوف عادته فى انتحال الأعذار .

وشاءت المصادفة أن يلمح الأديب ـ بعد قليل من الزمن ـ وهو فى طريقه لإنجاز بعض عمله ، جماعة من الشبان يتوسطهم كاتبه أمام دار السينمى . فأسرع الأديب إلى كاتبه ، ليؤنبه على كذبته ، ويقول له :

أيها العقلاء !

إن الضمير الغربى كله ضمير متعفن . فالمغفلون وحدهم هم الذين يثقون بهذا الضمير ، ويعلقون على يقظته حقوقهم القومية !

واللغة الوحيدة التى يفهمها هذا العالم المتمدين ، هى اللغة التى يخاطبهم بها اليهود : القوة والمال ، والإقلاق المستمر الذى لا يدع أعصابهم مستريحة ، ولا يدع تدجيلهم الدولى مستورا ، وكلما هاجت أعصابهم وانكشف موقفهم زاد ضميرهم يقظة وتحركت فى نفوسهم عواطف الرحمة والإشفاق على هؤلاء المقلقين الثائرين !

أيها العقلاء !

ليس أمامنا تجربة واحدة تثبت أن الضمير الغربى قد تحرك مرة واحدة لقضية إنسانية بريئة يتبع أصحابها نصائح « العقلاء » فيدعون الضمير الغربى هادئا يغط فى نومه العميق .

لابد من ضجة وجلبة لإيقاظ هذا الضمير النائم ، واليهود اليوم يدركون هذه الحقيقة ؛ ولذلك هم ناجحون !

أيها العقلاء !

مجرم فى حق أمته ، وفى حق العرب أجمعين ، كل من يدعو أمته أو يدعو العرب إلى الثقة بهذا الضمير المزعوم .

* * *

وبعد ، فالكلمة الآن للعرب ، لا لمستر أتلى ، ولا للرئيس ترومان ، ولا للجنة التحقيق !

فإما أن يخاطبوا الضمير الغربى باللغة الوحيدة التى يفهمها ، والتى يحذقها اليهود ، فيلبيهم الضمير الغربى فى كل مكان .

وإما أن يخاطبوا هذا الضمير بلغة « العقلاء » وينتظروا حتى تنطبق الحلقة ، ويتم الإتفاق بين أتلى وترومان ...

وحينئذ لا يلومن إلا أنفسهم ، وإنهم للوومون .

سيد قطب

« أين السيمى أيها الغبى من الطبيب الذى ذهبت تستدعيه لأمك ؟ »

وما كاد يتم قوله : أين السيمى أيها الغبى ؟ » حتى تبين تسرعه وخطأه ، فقد أدرك أنه يحدث شخصاً قريب الشبه بكاتبه .

ودهش الجميع لهذه المفاجأة ، فلم ير الأديب له مخرجا من هذا المأزق فى غير الأسلوب الجحوى ، فقال للفتى متبالها :

« أما السيمى ، فهى أمامك ! وأما أنت فلست بغبى » .

قلت : لكم إن صاحب هذه القصة هو أديب يعرفه الكثيرون منكم لا لشىء إلا لأنه ماثل أمامكم الآن يحاضركم فى غفلة جحا الذكى الحالم اليقظان .

١٢ — سرعة الخاطر

وهذه الغفلة كثيراً ما تعرض للانسان إذا استغرق فى التفكير ، فتذهله عما حوله ، فيأتى بأعجب المتناقضات . وثمة يتبين بحرج الموقف فإذا لم تسعفه إجابة حاضرة ، أو لفتة ساخرة ، تنقذه من الحرج وتخلصه من المأزق الذى ازلق فيه ، أصبح سخرية الساخرين وهدف الهازئين ، وضحكة العابثين .

وعلى ضوء هذه الحقيقة نستطيع أن نفهم حقيقة أمره ، وبعده عما يرمى من غفلة وتناقض واضطراب ، ورحم الله المرىّ القائل :

فيالك من يقظة كأنى بهـا حالم

١٣ — ريشة المصور

وكما أن المصور لا يستطيع أن تُظْهِرَ لك ريشتُه ما ينفرد به المملاق من ضخامة إلا إذا وضع إلى جانبه رجلا آخر أو نخلة أو شجرة أو شيئاً تقيس إليه طول المملاق ، لا يستطيع الكاتب أن تُظْهِرَ لك يَراعتُه مدى التناقض والشذوذ مثلا إلا إذا وَضَع بجوارها شيئاً آخر ، يوضح لك مقدارها ، ويجلو لك مسافتهما .

ومن هنا غلبت البرودة والفثاثة على جمهرة النكت التى تروى عن أفذاذ المتهكين متى انقطعت عن ملابساتها ودواعيها .

ومن هنا نعرف لماذا استهجن الناس كثيراً مما نشر من دعابات جحا وإجاباته بعد أن رويت منفصلة عن بواعثها ودواعيها .

ولا عجب فى ذلكم فإن المصور — كما أسلفت القول — إذا حاول أن يرسم عملاقا ضخما لم يرسم رجلا يملأ فراغ الصفحة كلها . لأنه لن يشعرك بهذا أنه يصور عملاقا . على حين يستطيع فى نصف الصفحة أو ربعها — كما تعلمون — أن يدخل فى روعك هذا الشعور إذا رسم بالقياس إليه شيئاً آخر تعرفه ليتبين لك نسبة ضخامته .

والشىء لا يعرف مقداره إلا إذا قيس إلى ضده

١٤ — تأخير الأيام

ونحن إذا سمعنا أن جحا يسأله سائل :

« فى أى يوم نحن من أيام الشهور ؟ » .

فيجيبه : « لست أتجر فى الأيام والشهور » يخيل إلينا أنها نكتة بائخة . ولكننا متى عرفنا أن السائل ثقيل الظل ، وأن جحا لا يريد أن يجيبه بل يتوخى تصغيره ، وبتعمد تحقيره ، أدركنا أنه إنما يقصد إلى هذا الجواب قصداً ، ليشعره بثقله وسماجته ، ويتخلص فى الوقت نفسه من إجابته .

وليس أفتك بالثقلاء من أمثال هذا الرد .

١٥ — القمر والنجوم

وقريب منه قوله لثقيل آخر ، حين سأله :

« أين يذهب القمر القديم ، بعد أن يحل مكانَهُ القمرُ الجديد ؟ » .

فقد أجابه على هذا السؤال البائخ مستهزئاً :

« ألا تعرف ما يُصنع به ؟ إنه يقطع — بعد ذلك — نجوماً تُنْثَرُ فى السماء » .

١٦ — الأقمار والبروق

ويعترضه فى طريقه مخبول أحمق بادى الغفلة وهو يسير على هضبة مشرفة على بعض الوديان فيقول له المخبول :

« انظر أمامك فى هذا الوادى ، وخبرنى ماذا ترى ؟ » .

فيقول له جحا واجماً :

« أرى جثثا ملقاة على أرض الوادى ! » .

فيسأله المخبول :

« أتعرف قاتلَهم ؟ إنه الماثل أمامك » .

فيشتد ارتباك صاحبنا جحا فيماجلُه قائلا :

« أتعرف لماذا فتكت بهم ؟ لقد عجزوا عن إجابتى عن سؤال واحد حيرنى . فإذا أجبتنى عنه كتبت لك السلامة » .

فيسأله جحا عن ذلك السؤال العويص . فيقول :

« لقد حيرنى أن أعرف لماذا يبدو القمر أولَ الشهر هلالا صغيراً ثم لا يزال يكبَر حتى يستدير ويَتِمَّ نورُه ، ثم يعود فيصغر شيئاً فشيئاً حتى يختفي ويطلُعُ غيره . فماذا يصنع بالقمر القديم ؟ » .

فيبتسم له جحا متلطفا ويهوِّن عليه الأمر قائلا :

« تباً لأولئك الأغبياء . أما كان فيهم من يُفضى إليك بالنبإ اليقين ؟ ألم يعرفوا أن الأقمار القديمة بعد أن تغيب عنا تظل مختبئة ، حتى إذا جاء فصل الشتاء ، تألقت منها البروق التى تلمع فى السحب والغيوم » .

وهنا يُثْلَج صدرالمخبول فيقبلُ يدى الفيلسوف العظيم قائلا : شكراً لك أيها السيد الجليل فما خطر لى — والله — ذلك الرأى على بال ! » .

١٧ — تغابى الأكياس

وكم نرى — أيها السادة — فى كل عصر ومصر ، حمقى يسألون أمثال هذا السؤال ، وأكياساً من قادة الفكر يتغابَوْن فلا يجدون مندوحة عن الإجابة بأمثال هذا الجواب ليتخلصوا من أذية المجانين وينجو بأنفسهم من كيدهم سالمين .

ثم يأتى بض الباحثين فيحملون إجابتهم الساخرة مَحْمِلَ الجِدِّ . ويتهمونهم بالغفلة والجنون ، ناسين أنّ لكل مقام مقالا .

١٨ — فضل التغابى

ولقد أجمع الناس — أو كادوا — على فضل التغابى فى كل عصر كما تعلمون ، وأفاض المبدعون وافتنوا فى تصويره ما شاء لهم خيالهم وافتنانهم .

فقال « زهير بن أبى سُلمى » فى معلقته الرائعة :

« ومن لم يصانع فى أمور كثيرة
يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم »

ثم تلاه معاوية فقال : « السَّرْوُ التغافل » .

ثم جاء عمر بن أبى ربيعة . فقال :

« تبا لهن بالعرفان لما رأيننى وقلن: امرؤ باغ أضل وأوضعا »

ثم تلاه المتنبى فقال :

« ليس الغبى بسيد فى قومه لـكن سيد قومه المتغابى »

وأعقبه شيخ المعرة فقال :

« . . . . وتبا له ، فإن دهرك أبله »

« قوم سوء ، فالشبل منهم يقول
الليث فرسا والليث يأكل شبله »

بعد أن قال :

« ولما تعامى الدهر وهو أبو الورى
عن الرشد فى إنحائه ومقاصده
تعاميت حتى قيل : إنى أخو عمى
ولاغرو أن يحذو الفتى حذو والده »

* * *

ومن أبرع ما عرفته فى هذا الباب الذى استفاض فيه فحول الشعراء والكتاب ذلكم المثل التركى الذى يقول :

« عظموا أقداركم بالتغافل » .

ويقابله قول ابن زيدون :

« إن السيادة — بالإغضاء — لابسة
بهاءها ، وجمال الحسن فى الخفر »

وقريب منه قول بعض الأفذاذ من القُدامى المبدعين :

«اقبل معاذير من يأتيك معتذراً إن بر عندك فيما قال أو فجرا
فقد أجلك من أرضاك ظاهره
وقد أطاعك من يعصيك مستترا »

كامل كيلانى

تجديد علم المنطق

فى شرح الخبيصى على التهذيب

تأليف

عبد المتعال الصعيدى

يطلب من مكتبة الآداب بالجاميز وثمنه ٢٠